الفصل السادس عشر

العصر الاستعماري

المرحلة الثانية

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، بدأ الاستعمار استئناف صورته التقليدية التي حافظ عليها. فإن الحكومات الاستعمارية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو ألمانية أو إيطالية أو بلجيكية أو برتغالية كانت مسيطرة تمامًا على الأقاليم التي تحتلها وانتهت مقاومة القبائل ولم تكن ظهرت حتى ذلك الوقت فكرة القومية. وكانت الحاميات العسكرية تتكون من جنود أفريقيين بقيادة ضباط أوروبيين تكفي للطوارئ العاجلة، وخصوصا المواصلات البحرية والحديدية تحسنت وتقدمت فأصبح في الإمكان نقل القوات من مكان إلى آخر خلال أسابيع، إن لم يكن خلال أيام.

خضعت جميع المستعمرات للإدارة المدنية، فيما عدا الجهات القاصية، وأخذت تلك النظم الإدارية في التطور. كما اتخذت خطوات واسعة في ميدان الصحة، وبذلك استطاع الأوروبيون وزوجاتهم أن يقيموا في أفريقيا وبوجود الزوجات ظهرت النوادي والنشاط الاجتماعي.

وباندلا ع الحرب العالمية الأولى، زاد عدد الضباط المنفيين في المستعمرات الأوروبية، فبعد أن كانوا عددًا قليلًا أصبحوا بالمئات وقد أدى هذا إلى زيادة دخل المستعمرة، كما زاد عدد الموظفين والمباني

الحكومية. والإدارات الفنية الوحيدة التي حظيت بالتقدم والتطور هي مصالح الأشغال العمومية مثل السكك الحديدية والطرق والمباني الحكومية. أما الخدمات الطبية بصفة عامة، فلم تكن تكفي إلا موظفي الحكومة. أما التعليم، فقد أخذ بالتزامات الحكومات، فلم يكن له وجوده وأول واجبات الحاكم كممثل لحكومة المستعمرات، كانت صيانة القانون والنظام والإشراف على جمع الضرائب.

كانت أغلب المنازعات المدنية والقضايا الجنائية تنظر أمام محاكم أهلية. أما بقية القضايا، فكانت تنظرها دوائر يرأسها قضاة أوروبيون ولم تتغير عادات الزواج والمواليد والمواريث أو تتأثر بالدين المسيحي. وكانت الحكومات تؤمن بأن واجبها هو إقرار السلام واحترام القانون واستتباب الحكم تاركين التعليم والأخلاق وشؤون الصحة للإرساليات التبشيرية. أما اقتصاديات البلاد، فأمرها متروك بين الأفراد المنتجين والتجار.

ولم تجد الحكومات ما يدفعها أو يعجل خطاها خلال الفترة بين الحربين العالميتين وثمة تغيير ملحوظ في وظائف الحكومة؛ ويرجع ذلك إلى الحرب العالمية الأولى. إذ اكتشفت الحكومة أن الاستعمار في حاجة إلى هدف وفلسفة لتبرير نفسه، وبرزت هذه الحاجة الماسة عند تقسيم المستعمرات التي كانت تابعة للإمبراطورية الألمانية، فقد قسمت توجولاند والكاميرون بين بريطانيا وفرنسا. أما جنوب غربي أفريقيا، فقد أضيفت إلى اتحاد جنوبي أفريقيا. كما قسمت مستعمرة ألمانيا في أفريقيا الشرقية بين بريطانيا وبلجيكا.

وعلى الرغم من أن الحلفاء اتفقوا على تلك التفاصيل فيما بينهم، فإنهم لم يجدوا الشجاعة لضم تلك الأقاليم في معاهدة السلام، فإن عصبة الأمم قبلت من الحلفاء أن يأخذوا على عاتقهم حكم تلك المناطق كواجب مقدس؛ حتى تتمكن تلك الأمم المتخلفة من الوقوف على أقدامها بين أمم المجتمع المتقدم وواضح جدا عنصر النفاق في تلك الترتيبات.

وقد جعل لورد لوجارد الحاكم الإداري البريطاني المشهور نظام الوكالة خلابًا في كتابه (الوكالة المزدوجة في أفريقيا البريطانية) وذلك خلال السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وبذلك لبس الاستعمار رداء جديدًا من الشرعية وظهر في صورة التزام تتحمله الدول المستعمرة على عاتقها لتنهض بالمستوى الاقتصادى والسياسى للشعوب المستعمرة وأصبح الاستعمار ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. وظل الكاتبان لورد لوجارد البريطاني وألبرت ساروث الفرنسي يتكهنان للاستعمار عمرًا طويلًا وانتهيا إلى النتيجة وهي أن الاستعمار خير للشعوب المستعمرة ومصلحة للدول صاحبة الاستعمار.

وأهم مبادئ ألبرت ساروث أنه يجب أن يتركز تطور أفريقيا الاستوائية على الأهالي الوطنيين والبدء بتطوير الخدمات الطبية والتعليمية والزراعية. ومعنى ذلك تهيئة الجو لتنشئة الأسر السليمة وفتح الأفق لرفع المستوى. وزيادة على ذلك، فإن النصائح والتعليمات أصبحت في متناول سكان المدن حتى يصبح الزارعون منتجين للأسواق العالمية ومشترين للسلع المستوردة.

ورأت بريطانيا أن ميزان التعليم لو ترك للوطنيين، فإن الحكومة الاستعمارية تصبح عرضة للتبلد. وفي سنة ١٩٢٥، أنشأت الحكومة البريطانية مجلسًا استشاريًّا في وزارة المستعمرات ودُعي حكام المستعمرات الأفريقية إلى مؤتمر للتفاهم على السياسة التعليمية، وتشترك حكومات المستعمرات في إعانة التعليم بالقدر الذي يسمح به دخلها المحدود وتفتش على المدارس وتدخل التحسينات عليها، وهي مدارس أنشأتها الإرساليات التبشيرية.

وخلال العشرة أو الخمسة عشر عامًا التي تلت ذلك، شهدت معظم المستعمرات البريطانية تطورًا في نظام التعليم يكفل تعليم ربع الشباب ويهيئ لعدد قليل من هذه الطبقة ثقافة تمتد إلى ثمان أو اثنتي عشرة سنة. وحذت بلجيكا في الكونغو حذو بريطانيا. أما فرنسا، فإنها لم تعتمد على مدارس الإرساليات، بل أنشأت مدارس خاصة بها لأقلية صغيرة من الأفريقيين.

وأهم ما ترتب على التعليم؛ أنه أثبت أن الأفريقي إذا تعلم فإنه يصبح كفئًا ومنتجًا لا يقل عن غيره ويتحمل المسؤولية وقادرًا على تحمل أعباء الواجبات التي يتحملها أي مواطن في أي دولة حديثة. ومنذ تلك اللحظة، انقشع الشك والريبة عن مستقبل أفريقيا.

ويختلف الاستعمار البريطاني عن غيره من استعمار دول أوروبا. فإن فرنسا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا تفكر في مستعمراتها بمبدأ ساورث. وعلى الرغم من قيام الإمبراطورية الفرنسية في كندا والهند ثم ضياعها فيهما، فإن

أفريقيا الفرنسية بقيت فرنسية.

فقد تعلم السنغاليون أنهم فرنسيون وتعلم أهل الكونغو أنهم بلجيكيون وأهل أنجولا أنهم برتغاليون، والصوماليون أنهم إيطاليون. وظلت الحال كذلك طول الفترة بين الحربين العالميتين ولم تقم في أي من هذه الدول الأوروبية فكرة إعطاء المستعمرات الأفريقية استقلالها، بل يجب أن ينشأ الوطنيون كمواطنين فرنسيين أو بلجيكيين أو برتغاليين أو إيطاليين.

أما بريطانيا، فإن فكرة (الكومنولث) أي جمهورية الشعوب، كانت فكرة حديثة صدرت في قانون ويستنمستر سنة ١٩٣٠، ولم يكن في بادئ الأمر مقصودًا أن تدخل فيه الهند أو دول أفريقية ولم تفكر بريطانيا كذلك بجعل مستعمراتها تتحول إلى بريطانية.

وقد ثبت فشل المبدأ الذي يجعل من المستعمرة جزءًا من الدولة المستعمرة فهو مجرد وهم أو خدعة. بل على العكس كان الأوروبيون المقيمون في المستعمرات في الفترة الأخيرة يشعرون بالقلق وقد شجعت بريطانيا رعاياها المقيمين في أفريقيا الشرقية وأفريقيا الوسى على الاعتقاد بأن بقاءهم في المستعمرات رهين بمجهوداتهم وأنهم إذا استطاعوا نقل السلطة إلى أيديهم والتحكم في المستعمرات، فإن ذلك كفيل بأن يجعل إقامتهم أبدية. ففي المستعمرات شمالي زمبيزي كان بقاء البريطانيين فيها يعتمد على الفكرة السائدة عن قوة الإمبراطورية البريطانية، فإذا ما نجحوا في إزاحة تلك القوى أصبح البريطانيون عاجزين تمامًا عن السيطرة.

أما العصر الذي يقع بين الحربين العالميتين من عام ١٨١٤ إلى عام

١٩٣٩ كان عصر لم يكن فيه أفريقي واحد يتحكم في بلده أو حتى يتحمل المسؤولية فيها.

وفي سنة ١٩٣٥ خضعت إمبراطورية الحبشة العريقة لغزو إيطاليا، كما كانت جميع القوى الاستعمارية في أوج عظمتها وسلطانها وحتى المعارك الناجحة للدفاع عن مصالح أفريقيا ضد جماعات المهاجرين إلى أفريقيا، لم يقم بها أفريقيون بل الإرساليات الأوروبية وضباط المستعمرات إذ أن هؤلاء الأوروبيين والمستعمرين يؤمنون بأن الأفريقيين قادرون– كأي جيش آخر– على النهوض بالأعباء في الوقت المناسب.

في هذه الفترة أقبل الجيل الجديد من الأفريقيين على التعليم وظهر من بين هؤلاء الزعماء والقادة في أفريقيا الحديثة. ويعتبر ظهور هؤلاء القادة أهم ما تتميز به الفترة الثانية من عصر الاستعمار، بل إن ظهورهم يعد أهم حدث في تاريخ أفريقيا.